عودة سنـــوهى

أقصوصة مصرية

ذاع خبر عجيب في أنحاء القصر الفرعوني، تناقلته الألسنة وتلقفته الأذان، واستعاده السائلون والمتعجبون، إن رسولاً من بلاد عامورة هبط مصر يحمل رسالة إلى فرعون مـن الأمير سنوهى الذي اختفى فجأة قبل أربعين عاماً كاملة، وكان لاختفائه اثر اى اثـر في بلبلة الأفكار وتضارب الظنون. وقيل إن الأمير يضرع إلى الملك أن يعفو عمـا سـلف، ويأذن له في العودة إلى ارض مصر ليأوى إلى منعزل هادئ يترقب اجلـه في الطمأنينـة وسلام وسرعان ما ذكر الجميع القصة القديمة التي بطرت باختفاء الأمير سنوهى، فراجعوا حوادثها المنسية وتذكروا أبطالها الذين أمسوا وقد أدركتهم الشيخوخة وأطبقت علـيهم معاطب الكبر فتهامسوا وثرثروا ما شاء لهم التذكر والخيال...

وفى ذلك العهد البعيد كانت الملكة أميرة شابة تنزل من قصر امنمحيت الأول منزل الزهرة المتفتحة الناضرة من الشجرة الباسقة، تكسو جسدها المـستوفز أرديـة الـشباب ومطارف الحسن، ويضيء روحها اللطيف وهج الذكاء ولوامع الفطنة، فعلقها اكبر أميرين في المملكة، ولى العهد (الملك الحالي سنوسرت الأول) والأمير سنوهى، وكان الأمـيران كالتوأمين تماثلاً في القوة والشباب والبسالة والثراء والمحبة والوفاء، فهام قلباهمـا بالحـب وناءت نفساهما بالوفاء، حتى أمسى كل على صاحبه واجداً وله متحفزاً منطويـاً علـى الغضب والبطش. وعلم فرعون بما يوشك أن يهتصر ما بين ابنيه من المـودة والإخـاء، فجزع جزعاً شديداً، ودعا بالأميرة وحادثها طويلاً. ثم أوجب عليها أن تلـزم جناحهـا بالقصر لا تبرحه، واستدعى الأميرين وقال لهما بحزم وصرامة:

- أيها الأميران ! إياكما والاندفاع الأعمى في سبيل التهور والـسفه فتـضحيا ملومين محسورين، وتنقلبا أضحوكة الأمراء ونادرة الشعب، ولقد قال الحكماء إن الإنسان لا يستأهل صفة الإنسانية السامية حتى يقدر أن يسوس شهواته وأهواءه، فهل تـسلكان سبيل الحيوان والهوام ؟ واعلما أن الأميرة ما تزال حائرة بينكما ، ولن تزال حائرة حـتى يلهمها قلبها الاختيار..... ولقد دعوتكما لتقطعا على نفسيكما أمامي عهداً وثيقـاً لا

ينقض، أن تنزلا عن حكمها راضيين وألا يحمل أحدكما لأخيه إلا الوفاء والمحبة، سـواء أكان ظافراً أم خائباً. فهل أنتما منتهيان ؟..

وكان صوته لا يحتمل التردد، فأحنى الأميران رأسيهما صامتين، فأومأ فرعون إليهما أن يتعاهدا ويتصافحا، فتعاهدا وتصافحا ومضيا متصافيين..

وحدث في ذلك الوقت أن انتشر العصيان والتمرد بين القبائل اللوبيـة، فجـرد فرعون حملة تأديبية جعل على رأسها الأمير سنوسرت ولى العهد، واختار الأمير سـنوهى قائداً لإحدى فرقها، والتقت الحملة باللوبيين في عدة مواقع فأطبقت عليهم حـتى ولـوا الأدبار، وأبدى الأميران من ضروب الشجاعة والبسالة ما هما أهل له. وأنما لعلى وشك الانتهاء من مهمتهما اذ جاء ولى العهد نعى والده الملك امنمحيت الأول، واتصل الخـبر الأسيف بالأمير سنوهى، والظاهر انه داخله الشك فيما عسى أن يضمره نحـوه الملـك الجديد، وساورته الوساوس واستولى عليه القنوط من حبه، فاختفى فجأة كأنمـا ابتلعتـه رمال الصحراء، وكثرت فيه الأقاويل، فمن قائل انه فر إلى إحدى القرى القاصية، وقائل انه اغتيل في لوبيا، وثالث يقول انه بخع نفسه يأسا من الحب والحياة، وتناثرت الأقـوال ردحاً من الزمن. ثم كلت الألسنة فأودعتها مقابر النسيان تحت ركام الـزمن، فغـشيها الظلام أربعين عاما، حتى جاء أخيراً ذلك الرسول من بلاد عامورة برسالة الأمير سنوهى، فأيقظ الغافلين، وذكر الناسين...

وقلب الملك سنوسرت في الرسالة عينين غير مصدقتين، وشاور الملكة في الأمـر، وكانت أوفت على الخامسة والستين، فصدق رأيهما على أن يبعثا إلى الأمير سـنوهى في بلاد عامورة رسلا تحمل إليه الهدايا الثمينة وتدعوه إلى مصر آمناً مكرما..

وذهبت رسل فرعون تضرب في صحارى الشمال، حاملة الهدايا الملكية ميممـة عامورة، ثم عادت وفى رفقتها شيخ في الخامسة والسبعين، استبد به الهرم فارتعشت أطرافه وظللت سواد عينيه سحابه باهتة، وكان في هيئة البدو يرتدى عباءة من صـوف خـشن وصندلاً، ويحتزم بحاملة سيفه، ويرسل لحية بيضاء تغشى أعلى صدره، ولم يكد يبقى منـه ما يدل على انه مصري ترعرع في قصر منف سوى انه حين بلغ مسمعيه غناء ملاحـي النيل تجلت في عينيه الأحلام، وارتعشت شفتاه الذابلتان، وتردد النفس في صدره بعنـف

فاغرورقت عيناه، وما يدرى الرسل إلا والشيخ يسجد على شاطىء النيل ويلثم ثراه بحنان كأنما يقبل وجنة حبيب برح به فراقه...

وحمل إلى القصر الفرعوني، وادخل على الملك سنوسرت الأول فسجد بين يديه وهو يقول:

- ليباركك الرب أيها الملك الجليل على ما أوليتني من عفو وما أكرمتني به من الإذن لي بالعودة إلى ارض مصر المقدسة...

فتفحصه فرعون بدهشة ظاهرة وهتف قائلا:

- أهذا أنت حقا... أأنت آخى ورفيق صباي وشبابي الأمير سنوهى ؟

فقال سنوهى:

- إليك يا مولاي ما فعلت الصحراء وأربعون عاما بالأمير سنوهى.

فهز الملك رأسه وأدنى أخاه إليه بحنان واحترام وسأله:

- ماذا فعل الرب بك طوال الأعوام الأربعين ؟

فاعتدل الأمير في جلسته وانشأ يقول:

- بدأت يا مولاي قصة الفرار بالساعة التي بلغك فيها نعى والدنا العظيم في الصحراء الغربية، هنالك أعماني الشيطان وأفزعتني الوساوس، فألقيت بنفسي في تيار الريح تعبر بي الفيافي والقرى والأنار، حتى جاوزت الحدود بين هالك ومجنون. وفى بلاد الغربة أكرمني اسم الشخص الذي فررت من وجهه واعزني جاهه، فكنت كلما أشرفت على كرب عذت بفرعون تذهب عنى الكروب. وما زلت في تخبطي حتى علم أمري شيخ قبائل تونو بعامورة فدعاني إليه، وكان شيخا جليلا يكن لمصر ومليكها كل تجلة ومحبة، فحدثني بلسان قومي وسألني عن مصر، فحدثته بما اعلم وأخفيت عنه حقيقة شخصي، فعرض على الزواج من كبرى بناته فقبلت، وقد بلغ بي اليأس من رؤية مصر مرة أخرى، واستطعت في زمن قصير – أنا الذي تربيت على عجلات فرعون المشهورة، وخضت عمار الحرب في لوبيا والنوبة – أن أتغلب على أعداء تونو جميعا، فأتيت بهم أسرى وبنسائهم سبايا ومتاعهم وسلاحهم أسلابا وغنائم، فازدادت مكانتي رفعة، وولاني الشيخ قيادة جيوشه، وجعلني خليفته، وكان شر ما لقيت أن تحداني كبير لصوص الصحراء،

وكان ماردا عملاقا يفرق من ذكره أشجع الرجال، فجاء لمنـازلتي طامعـا في مكـانتي وزوجي ومالي، فهرع إلى الميدان الرجال والنساء والأطفال، ليشهدوا أفظع عـراك بـين خصمين، فصمدت له بين التهليل والإشفاق وصارعته طويلا، ثم تفاديت ضـربه فاسـه الهائلة، ورشقته بسهمي النافذ فأصاب عنقه، فخر صريعا له خوار وحشرجة، ومن يومها صرت سيد الصحراء دون منازع... ثم خافت حماي بعد موته وحكمت القبائل بالسيف وقضيت فيها بسنة الصحراء، وتلاحقت الأيام والفصول والأعوام، فشب أبنائي رجـالا أشداء لا يعرفون سوى الصحراء مولدا وحياة ومجدا ومماتا... ألا ترى يـا مـولاي أنى ابتليت بالغربة وتقاذفتني الأهوال والمخاوف وامتحنتني الشدائد، ثم تمتعت بالحب والأبنـاء وذقت الـد والسعادة، ثم ادر كنى الكبر والعجز فنزلت عن السلطان لأبنائي وقفلـت إلى خيمتي انتظر الموت، وفى عزلتي انتابتني الآلام واعتورتني الأحزان، فذكرت مصر الجميلـة ومراتع الطفولة والشباب، فهاجني الشوق وغمز الحنين قلبي، وتخايلت لعيني مشاهد النيل والخضرة الناضرة والسماء الزرقاء والأهرام العالية والمسلات السامقة، وأشفقت أن يلحقني الموت فأودع أرضا غير ارض مصر، فبعث إلى مولاي رسولا، وشاء عطف الملك أن يعفو عنى ويرحب بي، ولست اطمع في غير ركن هادئ أقضى به شيخوختي، حـتى اذا جـاء اجل سنوهى فليدفع إلى المحنطين ويودع تابوته كتاب الأبدية ومرشد الموتى، ولتنح عليـه نائحات مصر بسجعهن الشجي...

فاستمع إليه فرعون في لذة وحبور، ثم ربت على كتفه برقة وقال له: " سيكون لك كل ما تحب " وعهد الملك بالأمير إلى حاجب من حجابه فقاده إلى جناحه بالقصر.

وقبيل المساء جاء رسول وقال له إن الملكة يسرها أن تستقبله، فقام سـنوهى مـن فوره، يخفق قلبه الشائخ، وتبع الرسول، وكان بادي الاضطراب والشرود يتمتم قـائلا: رباه... أيمكن أن أراها مرة أخرى ؟ ... وهل تذكرني حقا ؟ هل تذكر سنوهى الأمـير الشاب العاشق ؟

واجتاز عتبة حجرتا كما يسير النائم، فبلغ عرشها في ثوان، ورفع إليها عينيه، فرأى وجه صاحبته وقد ألوت السنون بنضارة شبابه ولم تبق من حسنه إلا أثارا واهنة، فانحنى لها في إجلال ولثم طرف ثوبا، وقالت له الملكة وهى لا تخفى دهشتها:

- رباه... أهذا حقا أميرنا سنوهى ؟

فابتسم الأمير دون أن ينبس بكلمة، ولم يكن تمالك نفسه بعد، فقال الملكة:

- لقد حدثني مولاي بحديثك، فعجبت لحسن بلائك، وشديد كفاحك، وانـه ليدهشني أن تجد من نفسك الصبر على فراق زوجك وأبنائك.

فقال سنوهى:

- رحماك يا مولاتي، ما بقى من العمر اجل يتسع للآلام، ومثلي لا يحتمـل أن يدفن في غير ارض مصر الحبيبة.

فخفضت المرأة بصرها هنيهة، ثم رفعت إليه عينين تلوح فيهما الأحـلام، وقالـت بصوت رقيق:

- أيها الأمير سنوهى، لقد قصصت علينا قصتك، فهل تعلم بقصتنا ؟ ... انك فررت حين بلغك نعى فرعون. ظننت أن منافسك وقد أصبحت له الكلمة العليا لن يبقى عليك، فأطلقت ساقيك للريح ولذت بصحراء عامورة... أفلا تدري بما أساء فـرارك إلى نفسك والى من تحب ؟

فبدت الحيرة على وجه سنوهى ، ولكنه لم يخرج عن صمته ، فاستطردت الملكة :

- ولكن من أين كان لك أن تدري بان ولى العهد زارني قبيل خروجكما على راس حملة لوبيا، وقال لي: " أيتها الأميرة، إن قلبي يحدثني بأنك اخترت الرجـل الـذي تونه، فجابيني بالحقيقة أعدك صادقا بالرضاء والوفاء، وبالا انقض عهدي أبداً... "

وسكتت الملكة، فسألها سنوهى متلهفا:

- وهل صارحته بالحقيقة أيتها الملكة ؟

فأومأت برأسها بالإيجاب، فاضطربت أنفاسه، وقال بلهفة من رد أربعين عامـا إلى الشباب:

- وماذا قلت له ؟

فابتسمت لجزعه وقالت:

- أيهمك حقا أن تعلم جوابي ؟ ... بعد انصرام أربعين عاما ؟ ... وبعـد أن صار أبناؤك شيوخ قبائل تونو ؟...

فلاحت في عينيه الذابلتين نظرة حائرة، ثم قال وقد تدج صوته:

- يهمني وحق الرب المعبود.

وكانت تحدج في وجهه بلذة واهتمام، فقالت مبتسمة:

- ما أعجب هذا يا سنوهى ! ولكن فليكن لك ما تريد، ولن اضـن عليـك الجواب الذي كان ينبغي أن تستمع إليه قبل أربعين عاما. لقد استنطقني سنوسرت، فقلت له أنى امنحه ما املك من مودة وصداقة، أما قلبي...

وأمسكت عن الحديث، فرفع سنوهى إليها وجهه وقد اضطربت لحيته باضـطراب ذقنه، وتجلت في وجهه الدهشة والارتياع، فاستطردت قائلة بصوت خافت:

- أما قلبي... فلا سلطان لي عليه...

فتمتم قائلا:

- رباه...!

نعم هذا ما قلته لسنوسرت، وقد ودعني وداعا مؤثرا، واقسم أن يبقـى علـى إخوتك ما تردد في صدره نفس، ولكنك تعجلت يا سنوهى وأطلقت سـاقيك للـريح، فخنقت أملنا الناضر، ووأدت سعادتنا، وحينما حمل إلى نبأ اختفائك كدت لا اصـدق، وأوشكت أن أموت كمدا، وقضيت على نفسي بالعزلة أعواما طوالاً... ثم .. ثم هزئـت الحياة بأحزاني، فابرأني حبها من داء الألم واليأس، فرضيت بالملك بعلا... هذه هي قصتي يا سنوهى...

وحدجت في وجهه فرأته يخفض بصره في سهوم، وأصابعه ترتجف من التأثر، فلبثت تنظر إليه في حنان وسرور. وتساءلت: ترى هل يجوز حقا أن تعابث حسرة الحب القديم هذا القلب الشائخ وشيك الفناء ؟!...